

النموذج النهضوي الأدبي الجزائري بين المرجعيات المشرقية والغربية

The Algerian Literary Renaissance The case of Eastern and Western References

ط.د. أصالة القوي*

جامعة باتنة 1، assala.elgaoubi@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال	2022/03/07 م	تاريخ القبول	2022/06/22 م
---------------	--------------	--------------	--------------

ملخص

عاصر الأديب الجزائري أواخر القرن التاسع عشر مناخا فكريا صعبا وغالبا ما يكون الجوهر الحضاري للعصر هو الموجه الأول لمسار الأدب، فأحدثت النهضة الأدبية نقلة معرفية ذات مرجعيات فكرية وعقائدية، وكشفت عن حضور اللغة إيماناً بقدرة الكلمة على إعادة بناء البنية الذهنية وتطوير البنية السلوكية للفرد الجزائري؛ والنهضة تأتي بعد تراكم معرفي لبناء نموذج تتحقق فيه مبادئ المرجعيات المؤسّسة له، ليمارس هذا النموذج وظيفته وسلطته في تغيير الوعي السائد نحو وعي تتجلى فيه معالم الهوية. ولذلك تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما خصوصية النص الجزائري في هذه الفترة؟ ما مدى تأثير الاتصال الفكري الجزائري مع النموذجين المشرقي والغربي على هوية النص الجزائري؟

الكلمات المفتاحية: النهضة الأدبية؛ الفكر النهضوي الغربي والمشرقي؛ مرجعيات فكرية.

Abstract

In the late nineteenth century, Algerian writers contemporized a difficult intellectual mood. Most of the time, The era civilizational essence is always the primary orientation of literature. The literary renaissance brought about a cognitive shift both intellectually and ideologically proving the strength of the language in rebuilding the mental structure and developing the behavioral structure of the Algerian individual. After accumulation of knowledge, renaissance emerges building a model to realize the principles of the founding references. This model exercises its function and authority in changing the prevailing sensibility towards awareness in which the features of identity are manifested. This study seeks to answer the following questions: What is the specificity of the Algerian text in this period? What is the impact of the bridging culture, imported ideas from the Arab East and Western thought on the identity of the Algerian text?

Keywords: Literary Renaissance; Renaissance Thought; Intellectual References

1. مقدمة

النتاج الأدبي مرآة للحياة الثقافية وتجسيد لكل المجردات الخاصة بنسق فكري ما، يعبر عن الهاجس المركب لكاتبه، كما يعبر عن وعيه الرؤيوي الذي يكتب نصرةً له ودفاعاً عنه، يطرح من خلاله إشكالية التموّج في العالم ومواكبة صيرورات الحياة، في مختلف انعكاساتها التي تتحكم ضمناً في إيديولوجيا الأديب وتوجهاته الفكرية.

يكون هذا النتاج، إذن، موازياً للمناخ الحضاري بكل جوانبه يتأثر ويؤثر ويساهم في إنتاج المعنى والمعرفة؛ ومن هنا نتوجه نحو الأدب الجزائري الحديث، وهو أدب النهضة الجزائرية التي جابهت الحقيقة المهتزة والبنىات الفكرية المتصدعة بممارسات إبداعية ذات روافد مزدوجة من أجل إعادة بناء مشهد أدبي ثقافي يواكب مستجدات العصر الحديث، وثقل معرفي يمكنه أن يدعم عملية ترجيح الكفة إذا ما وضع في الميزان، ومن أجل النضال الثقافي كذلك، إذ عاصر الكاتب الجزائري الحديث فترة الاحتلال الفرنسي وعانى من تبعاته على جميع الأصعدة.

ومن أبرز وأهمّ الخلفيات الثقافية والمرجعيات الفكرية التي استلهم منها الأدب الجزائري الحديث نهضته:

2. المرجعيّات المشرقيّة:

لا يخفى أن الوضع الاجتماعي والثقافي قد كانا في أدنى ما يجب أن يكونا عليه بسبب الركود الذي أصاب الحياة الأدبية خلال فترة الحكم العثماني لأسباب متعددة ليس هذا مجال الحديث عنها ولكن لابد من الإشارة إلى تبعاتها وما آلت إليه الساحة الثقافية جراء سياسة استبعاد اللغة العربية وعدم الاهتمام برفع مستوى التعليم وغير ذلك من العراقيل التي أسهمت في انتكاسة سير الممارسات

الأدبية، فإن مثقفي هذه المرحلة قد أدركوا تمام الإدراك أن العودة إلى الماضي وإعادة إحياء أدبه لأبد له أن يحي روح الأدب ويستفز العطاء الأدبي الجزائري، فعادوا إلى الشعر العربي القديم وتشبثوا بكل الموروث الفكري للعرب ، فمجدوه وقلدوه قالبا ومضمونا بحثا فيه عن نفحات البعث ونسائم الحياة من جديد بعد أن قُبرت روح المعاني في ما تبقى من أثار أدبية لا تزيد على أن تكون مدائح أو تهنئات أو وصايا ووعظ لا تشبع نهم وشغف الروح البشرية بالجمال ولا تنهض بمهام الأديب الحق الذي يحمل هم أمته داخل وجدانه.

كما أسهم التأثير بالمشرق العربي ونهضته الفكرية في الاحتفاء بهذا الموروث وخاصة من خلال ما أنتجه أدباء الاتجاه الإحيائي مثل محمود سامي البارودي (1839-1904م) وأحمد شوقي (1870-1932م) وحافظ إبراهيم (1872-1932م) ومعروف الرصافي (1875-1945م) وغيرهم من الشعراء، وما شهدته هذا العصر من إعلاء لشأن هذا الشعر باعتباره طوق نجاة وشعلة تنير سبيل المغامر الذي يسعى إلى دخول كهوف الذاكرة وكشف حجما وإضاءة المستتر منها لأنها حجر الزاوية الأساس في عملية البناء الجديد للشعر الجزائري الحديث.

ومن أبرز الشواهد على ذلك قول محمد العيد آل خليفة (1904-1979م):

أَنَا ابْنُ جَدِّي وَقَوْمِي السَّادَةُ الْعَرَبُ وَحِرْفَتِي مَا حَيَّيْتُ: الشَّعْرَ وَالْأَدَبُ

وَإِنْ دَعَانِي قَوْمِي أَنَا نَاصِرُهُمْ فَعُدَّتِي فِي انْتِبَاصِي: الشَّعْرُ وَالْأَدَبُ

(العيد آل خليفة، الديوان، 2010م،

صفحة 50)

يؤكد الشاعر نسبه العربي، وتمسكه بملكات الشعر والأدب، إذ هي سلاحه ووسيلته لنصرة قومه، وقضيته والحفاظ على شموخ ورفعة وطنه، وذلك لما للشعر من قوة معنوية وجمال وعزة.

وقول "أحمد سحنون" (1907-2003م):

لُغِّي بِهَا شَادَ الْعَرَبُ،

مَجْدًا بِهِ سَادَ الْأَدَبُ

إِنْ دُدْتُ عَنْهَا لَا عَجَبُ

فَلْغَيْرَهَا لَا أَنْتَسِبُ (سحنون، 2007م، صفحة 319)

يفتخر "أحمد سحنون" في هذه الأبيات بلغته وعراقة أصلها، كما يؤمن بفضلها على الأدب، وعظيم الشأن الذي يحظى به، إضافة إلى اعتزازه بها، بالدفاع عنها، وتثمينها، وتأکید ولأنه للغة العربية، وفي هذا التأكيد أيضاً، إشارة لكل الخلفيات الثقافية التي تحتويها اللغة بوصفها نظاماً ونسقاً دلالياً، وكياناً هوياتياً مستقلاً بذاته، فاللغة استناداً إلى ذلك سراج الشاعر ونوره المضيء لكل ما يواجهه من المجاهيل.

وبالرغم من التضييق الشرس الذي مارسه الاحتلال الفرنسي على الجزائريين لمنع الاحتكاك بكل ما هو شرقي إلا أن نوستالجيا الشعراء جعلت

الشغف واللهفة للغة العربية والدين الإسلامي مرتبطين بالمشرق العربي. ولعلّ ما زاد من قوّة هذا التعلق هو الهجمات العنيفة والمتواصلة على هذا الدين الحنيف الذي غرس في قلوب الجزائريين حتى أثناء الظروف السياسية التي حالت دون تعليم الأطفال لأساسياته ولغته وكل ما يتعلق به، كما "عاش هذا الأدب نفس الظروف والمشكلات التاريخية والفكرية التي عاشها الأدب العربي، وكانت صلة الجزائر بأوروبا -بحكم موقعها وسياستها- من أسبق الصلات التي نشأت بعد ذلك في الشرق العربي، فاستفادت من الصلة تجاريا وحربيا وإداريا، ولكنها فيما يبدو لم تفد شيئا من ذلك فيما يتعلق بفكرها وحضارتها وفنها وثقافتها، فبقي هذا الجانب محافظا راكدا قديما إلى أن جاء الاحتلال الذي لم يكن صدمة لجميع القيم السائدة في البلاد، بل كان بالإضافة إلى ذلك عامل تخريب وبعثرة لكل القيم الفكرية رغم جمودها وركودها وقدمها" (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 2007م، الصفحات 21-22)، إذ عمل على تدمير العلائق التي تعزز الانتماء العربي والقومية، كما استهدف الهوية الجزائرية في حد ذاتها، مستبدلا بها مبادئ الفكر الغربي وتاريخ أوروبا ولغة فرنسا، ومحاولات التبشير لإرساء المعتقد المسيحي في البنيات الذهنية للفرد الجزائري وغيرها من الدعائم الثقافية، وكانت هذه هي العلامة الفارقة بين أثر الاحتكاك الفرنسي بالمشرق وبالجزائر، حيث كان بالنسبة لمصر سببا في استيقاظ شعلة العلم والتوق للمعارف (وإن يكن سببا ثانويا وغير رئيس) من خلال حملة بونابارت (1769-1821م)، بينما كان سببا في الانتكاسة

بالنسبة للجزائر لطابعه الوحشي والقامع لكل محاولات المقاومة ورفض التملك والتَّبعية.

وقد جاء الأدب الجزائري مصطبغاً بالمشرقية أو امتداداً لها واستمراراً لأحد فروعها، وبعد أن أفاق الجزائريون من الصدمة وأعادوا شحذ الهمم "أخذ الأدباء بالانفعال بما يجري من الأوضاع، وجعلوا من الأدب صدى للحياة البئيسة التي تقبر فيها الحريات وتغل فيها العقول، أصبح الأدب إذن وسيلة تحريض للشعوب على من اعتدى عليها، فيصور بؤسهم ومواطن ضعفهم، وطريقة التحرر من ربق الظلم والانهزامية" (الدسوقي، 1973 م، صفحة 305)، ولعل أبرز الحركات الأدبية هي الحركة الاصلاحية التي تزعمها ثلة من علماء الجزائر من بينهم عبد الحميد بن باديس (1889-1940 م) والبشير الإبراهيمي (1889-1965 م)، ومحمد الأمين العمودي (1891-1957 م)، وقد اتسم أدبهم بالإحيائية والتقليد لقدامى العرب من شعراء المشرق من خلال الإيقاع والتصوير والتخييل وجزالة اللفظ والتمسك بعمود الشعر في مفهومه القديم الذي جاء به نقاد العصور السابقة.

ومن أمثلة ما يشهد لهذا التمسك والتقليد بالإجادة أن نجد في أول ديوان محمد العيد على خليفة رأياً لشكيب أرسلان في أحد أقطاب الشعر الجزائري حين يقول "إن كان في هذا العصر شاعر يصح أن يمثل الهاء زهيراً في سلاسة نظمه، وخفة روحه، ودقة شعوره، وجودة سبكه، واستحكام قوافيه التي يعرفها القارئ قبل أن يصل إليها وإن التكلف لا يأتيه من بين يديه ولا من خلفه فيكون محمد

العيد الذي أقرأ له القصيدة المرتين والثلاث ولا أملٌ وتمضي الأيام وعذوبتها في في". (العيد آل خليفة، الديوان، 1997م، صفحة ي)

وتحت تأثير هؤلاء الرواد الأول "ظلت الثقافة العربية في الجزائر طوال عهد الإصلاح ثقافة سلفية محافظة توجهها وترعاها حركة إسلامية اتخذت شعارها "لا يصلح آخر هذه الدنيا إلا بما صلح به أولها" (ناصر، 2006م، صفحة 40)، وكانت مراكز التعليم مرتبطة بالوسط الديني ارتباطا قويا، فغياب المؤسسات التعليمية أدى إلى جمود الفكر وتبلد المعرفة، غير أن الجهود الإصلاحية استنجدت بالزوايا والكتاتيب والمساجد لتعليم الأحرف العربية والقرآن الكريم والجزء اليسير جدا من الفقه حفاظا على الهوية العربية والجزائرية وإيماننا منهم بطاقات الحرف والكلمة العربية في تفعيل عتبات اللاوعي أمام مآزق ازدواجية اللغة وتشظي الانتماء.

ومن أمثلة ذلك قول محمد العيد آل خليفة :

هَمَّات لَا يَغْتَرِي الْقُرْآنُ تَبْدِيلُ وَإِنْ تَبَدَّلَ لَ تَوْرَةٌ وَإِنْجِيلُ

قُلْ لِلَّذِينَ رَمَوْا هَذَا الْكِتَابَ بِمَا لَمْ يَتَّفِقْ مَعَهُ شَرْحٌ وَتَأْوِيلُ

هَلْ تُشْهِوْنَ ذَوِي الْأَبَابِ فِي خُلُقِ إِلَّا َ كَمَا تُشْبِه النَّاسُ التَّمَاثِيلُ

(العيد آل خليفة، الديوان، 2010م،

صفحة 81)

يسخر الشاعر كلمته وشعره للدفاع عن دينه ودحض كل الأقاويل الباطلة التي تمس القرآن والإسلام، إذ يؤمن بأن الله وعد بحمايته من التحريف أو الزوال، ومن يصدّق أن القرآن قد اعتراه تبديل غير قادر على استعمال عقله بطريقةٍ سوّية.

"إن النظرة التقليدية إلى كون الشعر "مرآة الأدب" كما جاء ذلك عند أبي اليقظان، أو هو مما لا غنى للأمة عنه، كما جاء ذلك عند الهادي السنوسي، أو هو المصير والكرامة، كما جاء ذلك عند مفدي زكرياء، لا يمكن أن يفسر على أنه مجرد تعلق بمفهوم نقدي قديم، أو تصور تقليدي درج عليه العرب، إنما هو فيما نحسب استجابة لواقع كان ينتظر فيه من الشعر أن يؤدي دورا قياديا هاما في المجتمع في هذه الفترة بالذات" (ناصر، 2006م، صفحة 70)، فالشاعر هو صاحب الكلمة والحظوة والقادر على خوض مغامرة الخلق واكتشاف كنوز المخيلة المخبوءة، وهذه المقدرة جعلت الشاعر رسول قومه والناطق باسمهم ومقتحم ظلام المجهول ورهبة الخفاء فداء لهم.

ومن أمثله إيمان الشعراء بهذه المهمة قول "مفدي زكريا" في قصيدة له:

رسالة الشعر، في الدنيا مقدسة	وكم صرعنا بها، في الأرض طاغية
فكم هتكنا بها الأستار مغلقة	وكم حصدنا بها الأصنام، شاخصة
وكم جلونا بها الأسرار مبهمة	وكم رفعنا بها، أعلام نهضتنا

وكم رجمنا بها، في الإنس شيطاناً

وكم بعثنا من الأصنام، إنساناً

فخلدُ الشعر في الدنيا، مزاينا

(مفدي، 2007م، صفحة 245)

لولا النبوة .. كان الشعر قرآناً

وكم غزونا بها، في الغيب كوناً

وكم أقمنا بها، للعدل ميزاناً

وكذلك قول "أحمد سحنون":

إخوتي: يا قادة الفكر

ويا وفد البناة!

...

مرحباً بالألسن الفصحى

وأحلى النغمات

مرحباً بالعيد عيد

الشعرباني النهضات

إنه أقوى سلاح

إنه خير أداة!

...

يا رفاق أقبلوا

كالطير من كل الجهات

واجعلوا الشعر جهادا

مستميتا للطغاة

ورصا صا يحمل الموت

لأعداء الحياة

وصروحاً شاهقات

للعلا والمكرمات (سحنون، 2007م، الصفحات 187-188)

و "هناك نوعان من الثقافة في الشعر الجزائري: ثقافة محلية وأخرى خارجية، فالأولى تعني جميع المصبات الروحية والمادية التي أثرت ولونت هذا الشعر، مثلاً هناك الأسرة والمدرسة والمجتمع والمسجد والطبيعة والأفكار الحزبية ومبادئ الإصلاح. أما الثقافة الخارجية فتعني النظريات والمذاهب الأدبية وغيرها التي دخلت الجزائر عن طريق الكتاب والرحلات والإذاعة والصحافة" (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 2007م، صفحة 52).

ومن الأمثلة التي تجسد اهتمام علماء النهضة الجزائرية بالمدارس والتعليم هو احتفال بافتتاح مدرسة دار الحديث بمدينة "تلمسان" بحضور أعضاء جمعية العلماء المسلمين وحشد كبير من الشعب والهيئات، إضافة إلى تزامن هذا

الحفل مع تواجد وفود من تونس ومراكش فحضروا هذا الحفل الافتتاحي الذي يقول فيه "محمد العيد الخليفة" في قصيدة له بعنوان "تحية دار الحديث":

أحي بالرضى حرما يزار

ودارتستظل بها الديار

وروضا مستجد الغرس نضرا

أريضا زهره الأدب النضار

...

أحي خير مدرسة بناها

خيار في معونتهم خيار

(تلمسان) احتفت بالعلم جارا

وما كان كالعلم للبلدان جار

لقد لبست من الإصلاح تاجا

يحق به لأهاليها الفخار. (العيد آل خليفة، الديوان، 2010م، صفحة 79)

فقد كان لسفر ابن باديس والإبراهيمي ورمضان حمود (1069-1929م)

ومفدي زكريا (1908-1977م) وغيرهم بالغ الأثر في انفتاح البنية الذهنية والمقارنة

وتقليد ما له جدوى في الإصلاح والتغيير نحو الأفضل. فالنهضة الأدبية في المشرق العربي أكسبتهم خبرةً ويسرت أمامهم السبل، فكان الاهتمام بالتعليم ونشر الوعي من خلال الصحافة والزوايا وبعض دور النشر، واللجوء إلى الكتب المترجمة من ثقافات أجنبية وغير ذلك من عوامل.

وعلى سبيل المثال، نذكر رحلة البشير الإبراهيمي إلى المشرق ليمهد الطريق للشباب الجزائري للبعثات العلمية كما حاول طلب المساعدة المادية من الدول العربية من أجل الجمعية.

ولمحاولة الحفاظ على العلاقة الجيدة مع الدول الإسلامية، ونشر القضية الجزائرية ومحاولته تدويلها.

كما سعى إلى إبراز الصورة الحقيقية للفكر الجزائري الحقيقي والخالص كي لا يترسخ في أذهان العالم ما يصدره المستشرقون الفرنسيون عن الكتب والمخطوطات الجزائرية التي درسوها، إذ إن الحركة الاستشراقية كثفت جهودها في دراسة العقل الجزائري أثناء فترة الاحتلال.

ولما كانت الصحافة الجزائرية قد غُيّبت تماما عن الساحة لما لها من قدرة على فتح الآفاق وإنارة العقول، ومجاراةً كذلك للصحافة الفرنسية قرر ثلة من النخبة والمثقفين الجزائريين إنشاء صحف وجرائد تصدح بأصواتهم وتخرج آراءهم السياسية إلى العالم، لأنّ ذوي التعليم الفرنسي من الجزائريين لم يكن

انتقادهم ورفضهم للسياسات الاستعمارية الفرنسية لادعا وقويا بالقدر الذي يهز استقرارها أو يزعجها.

وعليه، ظهرت مجموعة من خريجي المعاهد الإسلامية وجامع الزيتونة في الأفق الصحفي وكان "ظهور جريدة المنتقد التي أنشأها ابن باديس سنة 1926 فاتحة عهد النهضة الفكرية في الجزائر، وبداية بزوغ فجر الصحافة الراقية والنقد الصائب". (باعزيز، 2007م، صفحة 41)

وبالرغم من ثقل الحمل السياسي والاجتماعي الذي تحمله الجريدة ومسؤولية توعية الشعوب ومحاولة بناء الرأي العام وتشكيل منظومة فكرية جزائرية موحدة، لم تغفل عن أهمية ترويض الذائقة الجزائرية فنيا في إرباك المخطط الفرنسي حيث "خصصت الجريدة ركنا خاصا في كل عدد من أعدادها تحت مسمى "حديقة الأدب"، ولقد كان الاعتناء بالشعر من الأهداف التي سطرته الحركة الإصلاحية من خلال الجريدة، حفاظا على اللغة العربية" (كرامي و جودة، 2021م، صفحة 434)، ولما كان الانقطاع المفاجئ يترصده مثل هذه المبادرات نتيجة للرقابة الفرنسية فقد توالى الجرائد تحت مسميات أخرى وبدايات جديدة مثل "البصائر" و"الشهاب".

ونحن حينما نتحدث عن العودة إلى الماضي، وعن التأثير بالمشرق العربي واتباع أساليب لا نعني بها خلو النصوص الجزائرية الحديثة من روح العصر وفحواه، بل هي تمثل وتجسد لمواقف الأديب من كل ما يدور حوله وخلاصة تجاربه

الحياتية الخاصة، "العودة إلى الماضي لم تقدر على التخلص من أثر الذات الكاتبة في استيقاظ إحساسها بعدم التوافق بين حاضرها وماضيها أساساً مهما كان شحوب هذا الأثر، إن عودة التقليدية للماضي، مشروطة بأثر الذات الكاتبة، هي فعل اصطفاء لعناصر وعلائق نصية، وهي في الوقت ذاته إعادة بناء لها وفق متطلبات تغافل القديم، وتنتشر على النص عناصر بانية هي الأخرى لدلالية القصيدة" (بنيس، 2001م، صفحة 71) فحينما نقدم قراءة جديدة للنص التراثي إنما نحياه ونمنحه فرصة لكي يقول كلمات لم تُقل بعد ورؤى لم يخبرها العالم رغم السنين التي تفصلنا عن هذا النص، لكنها قراءة خاضعة لروح العصر وخادمة لراهنه الفكري بكل خصوصياته.

كما أن اندلاع الثورة أقحم الأديب في الحرب والمقاومة الثقافية، إذ لا يمكن له أن يقف متفرجاً دون الانفعال براهنه وخصوصيات تجربته ونزعتة الوطنية، خاصة ونحن نعلم أن الشاعر يملك نفساً هشة حساسة وسهلة الخدش والتأثر، وفي المقابل كذلك جياشة العواطف والطاقت، ومن ذلك قول "أحمد سحنون":

حَيَاةُ الْجَزَائِرِ أُمْنِيَّتِي

فَإِنْ يَاسْمَعُ صَوْتَ الْجُدُودِ يَهْبُّ بِنَا مِنْ وَرَاءِ الْوُجُودِ!

، يَقُولُ: انْهَضُوا لِلْعَلَايَا أَسْوَد وَخُطُّوا اسْمَكُمْ فِي سَجَلِ الْخُلُودِ

وَلَا تَكْتُبُوا الْمَجْدَ إِلَّا بِدَمٍ (سحنون، 2007م، صفحة 322)

وقول مفدي زكرياء:

فِدَاءُ الْجَزَائِرُ رُوحِي وَمَالِي أَلَا فِي سَبِيلِ الْحُرِّيَّةِ

فَلْيَعِني (حِزْبُ الْإِسْتِقْلَالِ) وَ(نَجْمُ شَمَالِ إفريقيا)

وَلْتَعِني الْجَزَائِرُ مِثْلَ الْهَيْلَالِ وَلْتَعِني فِيهَا الْعَرَبِيَّةُ (مفدي، 2007م،

صفحة 89)

يظهرُ جلياً دعم الشعراء الجزائريين للثورة التحريرية، وللمقاومة السياسية
والمسلحة فداء الوطن ودفاعاً عن حريّته.

وهذه أبيات أخرى من قصيدة بعنوان "فلا عزّ .. حتى تستقل الجزائر":

ولباك شعب، كاد يفقد ظنه

بوعذك لولا أنه، يحفظ الذكر

ويقرأ في التنزيل، عند صلواته

بأنك بعد العسر، تغمر يسرا

وأشربته حب الشهادة، فارتقى

على غمرات الموت، تلهبه الذكرى

وطالبت به بالمهر، إن رام عزه

فأسرع من أرواحه يدفع المهر

وفي ساحة التحرير، سوق، قوامها

ضمائر قوم، لا تباع، ولا تشرى!! (مفدي، 2007م، الصفحات 256-257)

وقصيدة لـ "محمد العيد خليفة" بعنوان "يا قوم هبوا" قيلت بقسنطينة

قبيل اندلاع الثورة الجزائرية التحريرية بسنوات قليلة، وتبرز فيها الدعوة إلى
الجهاد والدفاع عن الوطن:

يا قوم هبوا لاغتنام حياتكم

فالعمر ساعات تمر عجالا

الأسر طال بكم فطال عناؤكم

فكوا القيود والأغلالا

والشعب ضج من المظالم فانشدوا

حرية تحميه واستقلال

لا أمن إلا في ظلال مرفرف

حرلنا عال ينير هلالا". (العيد آل خليفة، الديوان، 2010م، صفحة 339)

"وقد عرفت الجزائر نوعا من الاستقرار والهدوء في ظل الاحتلال، استقرار وهدوء لا عن رضى واطمئنان نفسي وتسليم بالواقع، ولكنه الاستقرار الأليم الذي جاء بعد فشل جميع المحاولات الثورية، والهدوء المفروض الذي وطده الحديد وباركته النيران والتفوق المادي" (سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري، 2007م، صفحة 23)، وهذا ما أدى إلى تأثر المغلوب بعقلية وثقافة الغالب كما هو الحال دائما في مثل هذا الوضع.

ومن هذا المنطلق، تتمُّ الإحالة مباشرةً إلى المرجعية الفكرية الأخرى التي كان لها تأثيرٌ كبيرٌ في تشكُّل التَّموذج النهضويِّ للأدب الجزائريِّ الحديث؛ ولا يمكن إنكار وجود آثار وبصمات هذه المنظومة.

3. المرجعيَّات الغربية:

الاحتكاك المباشر بالغرب كان من خلال اختراق النسيج الثقافي الجزائري وإقحام النموذج الغربي في كل جوانبه، حيث يتم استبدال اللغة العربية بالفرنسية في كل المعاملات الإدارية وجعلها لغة رسمية للبلاد، وتدرّس تاريخ فرنسا وأوروبا، وطمس مقومات الهوية العربية، واتباع سياسة التجهيل العمدي، حيث اقتصر التعليم على معرفة أساسيات ومبادئ اللغة الفرنسية ومعرفة يسيرة جدا لا تتجاوز أن تمكن من تقلد أبسط الوظائف الإدارية إلا ما ندر.

"على أن هؤلاء الذين تجاوزوا مرحلة التعليم الابتدائي، وأتيح لهم أن يبلغوا من التعليم مرحلة عالية، واستطاعوا أن يشاركوا في بعض وجوه النشاط الأدبي

والعلمي، هم - في بعض أمرهم - أمثلة ماثلة على اقتران السمو الفكري والاجتماعي باللسان الفرنسي الذي كان سمتهم الظاهرة، وعلامة امتيازهم، والذي غمر لغتهم العربية، فلم يعد لها وجود معه" (الحاجري، 1967م، صفحة 95)، وهنا يتضح جليا الانهيار بالآخر وتقديس كل ما يأتي منه لاعتباره مصدر العلم والمعرفة ورمزا للتطور والرقى، خاصة من سنحت لهم الفرصة بالسفر والاطلاع المباشر على التحضر والمدنية ومظاهر العلم في الغرب، وهذا ما خطط له النظام الفرنسي حين سمح بتعليم بعض الجزائريين، "وفي سنة 1883 أخذ يفتح أبواب المدارس في وجه أبناء الجزائر، لكن التعليم كان فرنسيا بحتا، فكيف لا والجزائر أصبحت عندهم قطعة من فرنسا ولغتها فرنسية، ولم يكن القصد في تعليم الجزائريين الاستجابة لصوت الأمة المتعطشة للعلوم والعرفان، وإنما تقريبيهم من فرنسا بواسطة اللغة الفرنسية حتى يسهل ابتلاعهم وإدماجهم" (الطمار، د.ت)، (صفحة 263) وحتى تضمن ولاءهم لها وارتباطهم فكريا وروحيا بها، حين يتشبع العقل بأدب فرنسي وثقافة غربية لابد أن يجتذبه الأثر الكبير للغة، فلا يخفى الارتباط الوثيق بين الفكر واللغة، "والحقيقة أن "الكلمة" أو "اللغة"، هي فعلا التي تخلق للإنسان ذلك العالم الأقرب إليه من أي موضوعات طبيعية، وتلامس رخاءه وكربه على نحو مباشر أكثر من الطبيعة المادية، لأن اللغة هي التي تجعل وجوده في جماعة ما ممكنا" (كاسيرر، 2009م، صفحة 114)، ترتب اللغة الأفكار وتقولها في نسق متكامل ذي أبعاد مترابطة، لها نظام يسمح بخلق المعاني، وتأكيد الانتماء والهوية من خلال الممارسات الرمزية التي تنتقل بالحقيقة من الفوضى إلى النظام. وتخرج الأشياء في الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل.

وربما لم تكن التجربة الجزائرية استثنائية في هذا الجانب، حيث إن فعل المثاقفة دائم الحضور في عملية تشكل الحضارة الإنسانية.

ولا يمكن أن تقوم النهضة من غير بواذر ومحاولات أو مراحل سابقة، يتكون فيها الفكر ويتطور ويكتمل النضج، وهذا ما جعلنا في هذا الموقف نميل إلى تأييد الرأي القائل إنه لا مجال لإنكار دور المستعمر في تكوين النموذج النهضوي الجزائري بشكل من الأشكال ولو بغير قصد، ومن ذلك أنه "خلال الستينات ظهرت على صفحات المبعثر كتابات بتوقيع رجال العلم الجزائريين يدعون قومهم للتعلم باللغة الفرنسية وتحصيل العلوم الفرنسية. لم يكن هؤلاء خريجي السوربون ولا من مدرسة سان سير ولا حتى الكوليج الإمبريالي. كان بعضهم إماما للصلاة، وبعضهم مدرسا في المدرسة الشرعية-الفرنسية، قبل أن تدخلها اللغة الفرنسية، وبعضهم كان من المرابطين الذين تولوا وظائف إدارية". (سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج6، 1998، صفحة 209)

وفي هذا الصدد لابد من الوقوف عند قضية الأدب الجزائري الذي كتب بأنامل جزائرية وأحرف فرنسية، وهي قضية أحدثت جدلا واسعا وعميقا حول هوية هذا الأدب ومدى صحة جزائريته، إذ اختار الكاتب لغة الآخر لتقوله وتعبّر عنه، لجأ إلى الانفتاح الكامل على المنجز الغربي وقلده في إنتاج خطاب بتعاقد رمزي غربي، لكن هؤلاء الأدباء أكدوا على أن هذه الكتابات لم تكن إلا تعزيزا للانتماء العربي من خلال اختراق المنظومات الفكرية الغربية وتشويهها وكسر

نسقها المعرفي، حيث أن نصوصهم تضح بالمضممرات التي تدعوا إلى نهضة معرفية جزائرية ابتداء من كسر أقوى دعائم الوجود الفرنسي وهي اللغة داخل نسقها وجعل الفرنسي غريبا داخل لغته كما يقول كتاب هذا النوع من الأدب أنفسهم، حيث إنهم لم يؤمنوا بحيادية اللغة وبراءتها بل أدانوها وتفظنوا إلى محاولة تذويب ضمائرهم وكونهم الروحي في الفضاء الفرنسي العام من خلالها؛ وعلى سبيل التمثيل لا الحصر نذكر : كاتب ياسين (1929-1989م)، مولود فرعون (1913-1962م)، مولود معمري (1917-1989م)، و مالك حداد (1927-1978م)...

ومن ثمة "بدأ المثقف الجزائري يتروى في موقفه من الحضارة الغربية، فهو قد رأى ما يؤدي إليه الانكماش على النفس من تدهور، وما تجر إليه المقاومة السلبية من تخلف ثقافي واتخاذ الموقف الوسط هو الذي يناسب هذه الحالة" (مصايف، 1983م، صفحة 45).

بدأ إذن رحلة البحث عن الذات وعن كيان الفكر والأدب الجزائري وسط هذا الزخم المعرفي والتراكم الثقافي من روافد محلية وأجنبية (مشرقية وغربية)، اتجه نحو قراءة مستحدثة للتاريخ وإعادة تشكيكه والمشاركة في صنعه، سعى إلى استدراك المغيبات عن المشهد الثقافي، "والأديب الواعي يميز بإحساسه وثقافته بين هذه المشاكل، فلا يهتم إلا بالأساسية التي تؤثر على مسيرة المجتمع، ولعل المشكلة الأولى التي يعاني منها المجتمع العربي هي كيفية بناء الإنسان العربي الجديد الذي يناسب المرحلة الحضارية التي يمر بها الإنسان الذي يدرك نفسه ومقدراته

الحضارية، ولا يرفض ما تمده به الثقافة الإنسانية والحضارية " (مصايف، 1983م، صفحة 94).

فتحديث العقل لا يمكن أن ينبني على أساس معرفي سليم، إذا لم يعتمد توليفة مرجعية تثرى آفاق فكره وتوسع مجالات إدراكه.

وقد تكون الترجمة أفضل وسيلة لتخليص الأدب من التقليد والتقوقع والجمود الفكري ونضوب منابع التخيل.

"ولعل ما يلفت نظر الباحث أن الداعين إلى الاتصال بالآداب الأجنبية والاستفادة منها، أدباء يحملون في الوقت نفسه فكرة الدعوة إلى أدب تجديدي من خلال منظور رومانسي، فعلى توالي السنوات التي ظهرت فيها هذه الدعوة نجد الداعين إليها في الجزائر شعراء أو أدباء ذوي اتجاه روماني من أمثال رمضان حمود، وأحمد رضا حوحو، وأبي مدين الشافعي، والطاهر بشوشي، وعبد الله شريط، أحمد بن ذياب" (خرفي، 1985م، صفحة 85)، وقد يكون السبب هو تأثرهم بأدباء المهجر (خاصة الأمريكي)، وبأدب المستعمرات (أدب الهامش).

ومن الضروري توضيح أمر الرومانسية في الأدب الجزائري، إذ لا نقصد بها المدرسة والمذهب الرومانسي بخلفياته الفلسفية ونظرياته ومبادئه، بل يمكن أن نطلق عليه مصطلح الوجدانية (كما اتفق عليه من طرف النقاد) لأنه تعبير عن الذات والواقع وظروف المجتمع، تعبير اضطر إليه الشاعر لهشاشة نفسه وحساسيتها، فهو استصراخ وتنفيس عن الروح، إذ تأذت من الحزن والألم

والانكسار وخاصة بعد الحرب الكونية الأولى (1914-1918م)، وصدمة الإخلاف بالعهود الفرنسية والوضع الذي آلت إليه العلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتشهد أبيات "رمضان حمود" على ذلك حين قال:

أَنْتَ يَا قَلْبِي فَرِيدٌ فِي الْأَحْزَانِ

وَنَصِيبُكَ مِنَ الدُّنْيَا الْخَيْبَةُ وَالْجِرْمَانِ

أَنْتَ يَا قَلْبِي تَشْكُو هُمُومًا كِبَارًا، وَغَيْرَ كِبَارِ

(خرفي، 1985م، صفحة 45)

"رائد الاتجاه الرومانسي في الجزائر رمضان حمود، كان متأثرا إلى أبعد حدود التأثير بأدب جبران خليل جبران، معجبا بأرائه الثورية الوطنية بصفة خاصة، متابعا لإنتاجه مدمنا على قراءته ولاسيما عندما كان طالبا بتونس" (خرفي، 1985م، صفحة 44)، ويشكل جبران نموذج الفكر النهضوي المزدوج، إذ يفكر ويكتب باللغة العربية والانجليزية، ولعلّ من أهم ما التصق بأدب جبران أنّه يؤمن بانتمائه العربي ولا ينكر انتماءه الإنساني للعالم ككل، يفتح على كل المنجز العالمي الأدبي وغير الأدبي، يثور ويتمرد على كل سلطة لا يرتضيها سياسية أو تقاليد اجتماعية أو لغة جامدة وقوالب منمطة لم تعد قادرة على الإفضاء بما في نفس الإنسان الحديث من طاقات شعورية متفجرة، يؤمن بقدرة الأدب على هدم الفكر السائد وتبني رأي جديد يسخر له كل الممكّنات. ومن أبرز الآراء التي صرح بها حمود عن ثورته الفنية "الشعر وحي الضمير وإلهام الوجدان... الشعر موج

متدفق يقذفه بحر النفس الطامي" (ناصر، 2006م، صفحة 14)، فالشعر عنده لا يعنى بقوالب منمقة أو زخارف شكلية، بل هو ما جادت به النفس من مشاعر.

ونظمه للشعر يجسد ثورته فنيا على نحو يرتضيه قائلا:

فَقُلْتُ لَهُمْ لِمَا تَبَاهَوْا بِقَوْلِهِمْ :

أَلَا فَاعْلَمُوا أَنَّ الشُّعُورَ هُوَ الشَّعْرُ

وَلَيْسَ بِتَنْمِيقٍ وَتَزْوِيقٍ عَارِفٍ

فَمَا الشَّعْرُ إِلَّا مَا يَجْنِي لَهُ الصَّدْرُ

فَهَذَا خَرِيرُ الْمَاءِ، شِعْرٌ مَرَّتِلٌ

وَهَذَا غِنَاءُ الْحَبِّ، يُنْشِدُهُ الطَّيْرُ (ناصر، 2006م، صفحة 101)

4. خاتمة:

➤ وبهذا تكون النهضة الأدبية الجزائرية نهضة ذات منطلقات معرفية متعددة، تمارس فعل تعميق الإدراك والبحث عن الذات المستقلة من شوائب المكونات الثقافية، ليتكون النموذج النهضوي الواعي بالمأزق الذي تخلفه الصراعات بين ازدواجية الثقافة واللغة والرؤى، ويؤمن بضرورة التوليف بين مختلف المرجعيات الفكرية لتشكيل أفق خاص يتسم بالخصوصية الجزائرية

ويعبر عن واقع الأديب وعن رؤاه الكونية ومواقفه من تموضع الإنسان من العالم وعلاقاته.

➤ تعدُّ العلاقة بالشرق العربيّ وسيلة أمان للفرد الجزائريّ إبان فترة الاحتلال، لما لها من ارتباط وطيد بمكونات هويته العربية والإسلامية، كما أن هذه العلاقة سمحت بتنوير فكره وإثراء أدبه من خلال حركة النهضة الأدبية.

➤ عملت جمعية العلماء المسلمين على فضح الجرائم التي تقوم بها الدولة الاستعمارية، كما حاولت تعرية المخططات الفرنسية المتخفية وراء ذرائع وهمية مثل ادعاء الاهتمام بالتعليم، ونشر الثقافة، بينما الهدف الخفي هو قتل معالم الهوية الجزائرية ومحو كل أثر لفكرها الثقافي الخاص.

➤ تمسك الفرد الجزائري وخاصة النخبوي بالموروث الأدبي العربي كان نابعا عن رغبته الجامحة في الحفاظ على وجوده الذاتي وعلى كل ما يدل على جوهره كإنسان عربي مسلم.

➤ لم يكن هذا التمسك بالموروث جامدا غير قابل للاحتكاك والتأثر والتأثير، بل تبلور في ذهن الأديب الجزائري وتفاعل مع لبّ الحضارات التي أخذ عنها، والمرجعيات التي كتب انطلاقا من إيمانه بها ما يخدم ويعبر عن راهنه.

➤ كان للأثر اللغوي دورٌ بارزٌ في ظهور تيار أدبيّ جديدٍ في الساحة الأدبية الجزائرية، وهو الأدب الجزائريّ المكتوب باللغة الفرنسية، إنه أدبٌ تجاوز الفروق الثقافية ليوصل صوت الشعب بالكلمة، ويواجه الموت المعنويّ.

5. قائمة المراجع:

1. أبو القاسم سعد الله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (1830-1954)، ج 6 (الإصدار ط1). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
2. أبو القاسم سعد الله. (2007م). دراسات في الأدب الجزائري (الإصدار ط5). الجزائر: دار الرائد للكتاب.
3. أحمد سحنون. (2007م). الديوان الأول (الإصدار ط2). الجزائر: منشورات الحبر.
4. إرنست كاسيرر. (2009م). اللغة والأسطورة (الإصدار ط1). (سعيد الغانمي، المترجمون) أبو ظبي- الامارات: دار كلمة للترجمة.
5. بن عمر باعيز. (2007م). من ذكرياتي مع الإمامين الرئيسين عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي (الإصدار د.ط.). الجزائر: منشورات الحبر.
6. زكرياء مفدي. (2007م). اللهب المقدس (الإصدار د.ط.). الجزائر: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.
7. صالح خرفي. (1985م). حمود رمضان (الإصدار د.ط.). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
8. صليحة كرامي، ومصطفى جودة. (جوان، 2021م). 9. كرامي صليحة، جودة مصطفى، جريدة المنتقد ودورها في تطور الأدب الجزائري الحديث، ع2، (جوان 2021م)، جسر المعرفة.

9. عمر الدسوقي. (1973م). في الأدب الحديث (الجزء 1) (الإصدار ط8). القاهرة- مصر: دار الفكر.
10. محمد الطمار. (د.ت). تاريخ الأدب الجزائري (الإصدار د.ط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
11. محمد العيد آل خليفة. (1997م). الديوان (الإصدار د.ط). الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
12. محمد العيد آل خليفة. (2010م). الديوان (الإصدار د.ط). الجزائر: دار الهدى.
13. محمد بنيس. (2001م). الشعر العربي الحديث بنياته وإبدالاتها (التقليدية) (الجزء 1) (الإصدار ط2). المغرب: دار توبقال.
14. محمد طه الحاجري. (1967م). جوانب من الحياة العقلية والأدبية في الجزائر (الإصدار د.ط). القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية.
15. محمد مصايف. (1983م). النثر الجزائري الحديث (الإصدار د.ط). الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
16. محمد ناصر. (2006م). الشعر الجزائري الحديث (اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975م) (الإصدار ط2). بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي.